من تراب الطريق!

(٢٧٧) الثقة والاحتمال ! (*)

الإمكان أو الاحتمال - شيء في البنية الأصلية للوجود الطبيعي .. العضوي وغير العضوي .. في وجود الأحياء وغير الأحياء على حد سواء .

وقد حاول العقل البشري أن يتجاهل هذا الواقع أو يقلل من شأنه عصوراً طويلة، ومازالت كلمات مثل : صدفة وحظ واعتباط وعرضي - مازالت تحمل قدراً من معنى المخالفة والإخلال والعمى والغفلة وعدم المعقولية ! وقد ترك هذا آثاراً غير حميدة في التراث الإنساني كله، سواء ما تعلق منه بالفلسفة أو الأخلاق أو الدين أو الفن أو الاقتصاد .. أو تعلق بالعلم نفسه !

والارتباط بين الإمكان والاحتمال، وبين الإرادة والاختيار وهما ركيزتا الحياة الواعية، ارتباط أوضح من أن يتجاهله العقل أو يصر على تجاهله.. سواء في نظر العقل إلى نفسه وإمكانياته وقدراته، أو بالنسبة لعلاقته بالوجود أو علاقته بما يظن أنه أصل الوجود أو أنه مصير الوجود ومصيره هو !

والذي يشجعنا على الجرأة والاندفاع بغير بينة أو تثبت جاد، وعلى استساغة المبالغة والتطرف وتخطي الحد - هو الاطمئنان لعدم وجود المعترض أو المانع .. وأحيانا بسبب الاطمئنان لوجود التوافق أو الموافقة .

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/١٧

وهذا باب جاء ويجيء منه كثير من الأذى فى حياتنا الفكرية والروحية والمادية . لأن العقل والعلم والثقة والإيمان والصحة والقوة - مبناهم جميعا الانضباط !

هذا الانضباط هو الذى يقاوم السيولة الفطرية التى فى داخلنا، والتى بمقاومتنا لها وعلى قدر هذه المقاومة، يكون للآدمى " ذات " تعى نفسها وماضيها وتلتفت إلى حاضرها ومستقبلها .. ذات يحس بها إحساسا يقينيا متصلا ملازما بأنها " وجود " مهم فائق الأهمية .. وجود خاص لا يشاركه أحد فى خصوصيته .. وجود غير الوجود العام للآخرين أو الكون .

وتلك السيولة الفطرية التى داخلنا رصيد حيوانى .. لها عند الحيوان حدود فطرية يتوارثها النوع توارثا بيولوجيا فى الأغلب الأعم .. يجيء هذا الميراث مع الميلاد ولا يضيف إليه مجتمع الحيوان إلاّ أقل القليل لتبقى فى حدودها . وهذه الحدود الفطرية تمنع الحيوان من الحيرة والتخبط وتجعله قادراً على التكيف مع المحيط، وتجعل سلوكه يتسم دائما بالثقة والإيمان الحيوانى animal faith - الخاليين من التردد لخلوهما من النظر والتأمل والمقارنة وما ماثل ذلك مما يستثير الخواطر والرغبات المتعارضة التى تواجه الآدمى وتحتاج منه دائما إلى شيء يضبطها ويفصل بينها ويطوعها ويخضعها لسلطانه !

ومع ذلك فهذا الإيمان الحيوانى animal faith أو هذه الثقة الحيوانية، موجودان أيضا لدى الآدمى - وعلى نطاق واسع - فى كل الأمور التى يقوم بها دون نظر أو تأمل، وهذه تشمل رقعتها أو مساحتها معظم حياتنا العادية فى يقظتنا من أكل وشرب وحركة وسكون وحب وكره وكلام وصمت وقبول ورفض ورضًا وسخط .. كل هذا السلوك المبنى على الاعتياد سواء كان ماديا أو معنويا مصحوب بهذا " الإيمان الحيوانى " أو هذه " الثقة الحيوانية " .. لأنهما فى الحقيقة أساس الاعتياد وغايته فى ذات الوقت . وبدونهما يفقد الاعتياد تماما وظيفته وأهميته فى عالم وحياة الإنسان !